الفصل الأول

العـــرب

ربما كانت أولى الكتابات التي ذكر فيها اسم العرب في تاريخ البشر ما جاء في الكتابة التي وصلت إلينا من الملك الأشوري شالمنصر الثالث حيث أفادت هذه الكتابة بأنه كان هناك بعض الزعماء الثوار الذين أشير إليهم بأنهم العرب . ومنذ ذلك التاريخ أخذ لفظ العرب بكسر الراء يرد في المخطوطات والكتابات الأشورية والبابلية ، فتارة نجدها عربي وأحيانا عربو (ب) وكلها تعني نفس الأمة الثائرة . وكان هؤلاء الثوار من الأمم البدوية التي تعيش في صحراء العرب الشمالية كما كانت الجزية التي كان عليهم دفعها لملك آشور من الجمال التي قام العرب بتربيتها كحيوانات أليفة بين عام ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق. م ، وكان ذلك في شبه الجزيرة العربية .

وجاء ذكر العرب في الإنجيل أيضا إذ ورد أنه في حكم الملك جوهو سوفات (بين سنة ٩٠٠ – ٨٠٠ ق.م) جاء العرب إليه بهدايا من الضأن بلغ عددها سبعة آلاف وسبعمائة كبش ، ومن التيوس مثل ذلك العدد أيضا . أما اللفظ الذي درج الإنجيل على استعماله عند ذكر العرب فهو الإسماعيليون على أنهم من بني إسماعيل عليه السلام . غير أن هذا لا يمنع أن يكون لفظ العرب معروفا لدى العرب أنفسهم ، وكان يعني معنى محددا يظهر لنا من الاستعمالات القديمة له . فاللفظ المقابل للفظ العرب والذي يمثل الضد له هو العجم ، وهذا يظهر لنا أن لفظ العرب إنما كان يعني القدرة على التعبير عن النفس والقدرة على الإفصاح عما في خاطر الإنسان . ونجد

العديد من هذه التعريفات في اللغة العربية .فـالعربي يقابلـه الأعجمـي ، وإذا استعصى الكلام على امرئ ولم يستطع أن يفصح عن نفسه ، قيل إن حديثـه استعجم . وحتى اليمامة تصبح مستعجمة فلا تستطيع أن تعرب عما يكن في نفسها (١) . لهذا فإنه من الواضح لدى العرب أن اسمهم إنما يرمز إلى القدرة على الإفصاح عن النفس . ولما كان ذلك الوضوح في تبيان المعـاني ضروريـا عند العرب ، فإن ا لله سبحانه وتعالى ذكر للعرب عندما أرسل النبي صلى ا لله عليه وسلم بـأن الـذي أنـزل علـى الرسـول (ص) إنمـا هـو قـرآن عربي ، وأفـاض في تبيـان القـرآن الكريـم باللسـان العربـي الـذي يسـره به ليفهمه العرب ، وكل من يتكلم العربية ويتخذها لغة له .

ولعل من أعظم مـا يؤيـد هـذه الفكـرة أي أن العروبـة لغـة وليسـت أصلا الحديث الشريف الذي ورد في كتاب الوحي المحمدي (٢) . فقد جـاء في ذلك الحديث ما يلي :-

((روى الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عـن أبـى سـلمة أبن عبد الرحمن قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسـي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشـي ، فقـال هـذا الأوس والخـزرج قـد قـاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذه (ويعني هذا المنافق بكلمـة " الرجـل " النـبي صلى ا لله عليه وسلم وأن الأوس والخزرج من قومه العرب ينصرونـه لأنهـم من قومه . فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلي نصـره) . فقـام معاذ بن جبل "رضي " ، فاخذ بتلابيـه ، ثم أتي النبي (ص) واخـبره بمقالتـه . فقام النبي (ص) مغضبا يجر رداءه ، حتى أتى المسجد ، ثم نـودي إلى الصـلاة جامعة . وقال صلى ا لله عليه وسلم : أيها الناس: إن الرب واحد ، والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما

هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي . فقال : فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول ا لله ، قال: دعه إلى النار . فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل . وقد ورد هذا الحديث في كتاب الوحي المحمدي .

ويظهر لنا هذا الحديث الشريف من هو العربي إذ أن ذلك أصلا وتاريخا إنما هو بسبب اللسان العربي . ولعل مما يفسر ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم : لافضل لعربي على عجمي الإ بالتقوى ...الخ الحديث . وكثيرا ما يتحدث العرب عن العجمة في آدابهم وأشعارهم فيذكرونها بمعنى أنه لم يستطع المرء أن يفصح عن نفسه بلغة مفهومة . ولم تكن اللغة العربية الفصحى التي تكلم بها العرب في أول أمرهم هي اللغة السائدة المعروفة في كل بقاع شبه الجزيرة العربية لأن تعقب تاريخهم ، والكشف عن آثارهم أظهر أنه كانت للعرب عدة لهجات في أول حياتهم خاصة تلك التي ظهرت في اليمن على مدى القرون ، وكتبت بالخط المسمارى. ولكن ما لبثت الهجرات العربية المختلفة من جنوبي الجزيرة إلى المناطق الأخرى أن أسهمت كثيرا في تطوير اللغة العربية وإثرائها بالكلمات والتعابير ٠ ومن بين تلك الهجرات الهامة ما حدث حين قام اللخميون والغساسنة من اليمن فذهب الأوائل إلى العراق ، ونزح الآخرون إلى الشام ، فجاور اللخميون الفرس ، وجاور الغساسنة الروم ٠

وبالإضافة إلى هجرة هؤلاء إلى أطراف الجزيرة فإننا نجد أن كلا من الأوس والخزرج قد هاجرت أيضا من مواطنها في اليمن إلى حيث تقع يثرب ، وأصبحت أهل تلك المنطقة ٠ ولما أصيب اليهود بالاضطهاد الرومى ، ولم يجدوا لهم ملاذا قبل بهم الأوس والخزرج وسمحوا لهم بالإقامة معهم في يثرب حتى جاء الإسلام ، وبدأت عداوتهم له وخيانتهم للعهود

التى كانت بينهم وبين المسلمين .وفى مكة المكرمة جاء قُصي بسائر قبائل قريش وأنزلهم في ذلك الموقع الشريف ، ووزع تلك القبائل على الأحياء المكية فأنزل بعضهم في البطاح ،كما أنزل الآخرين في الظواهر . وكانت هناك عدة بطون من قريش في البطاح منها بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار ، وبنو مخزوم وغيرهم .كما كانت قبائل الظواهر فىالأطراف المرتفعة .

ولم تستقر القبائل العربية في موطن واحد بل كانت تموج وتتنقل في الجزيرة العربية وقد تدخلها تلك التحركات في نزاعات مع غيرها من القبائل ، وهذا ما جعل التعبير العربي(من غلب سلب، ومن ذل هان)هو السياسة السائدة بين القبائل . فقد كان البقاء للأقوى ولذلك فقد كان يؤلب بعضهم بعضا على أعدائهم بل وعلى إخوانهم أيضا .

وكانت كل هذه الهجرات والنزاعات، بل والتجارة أيضا من أسباب انتقال اللهجات من مكان إلى آخر ، مما أدى أحيانا إلى كثرة المترادفات في بعض المعاني ، كما كانت تظهر بعض الألفاظ التى قد تستعمل بمعنى فى قبيلة وبعكسه فى قبائل أخرى . ولكن استطاع العرب فى عهدهم ذاك أن يطوروا لغتهم بحيث أصبحت تعبر عن كل ما يريدون ،وتتناول حياتهم الأدبية والفكرية والعملية والعلمية والدينية . وصارت ثرية في ألفاظها وتعابيرها .ولم تكن هناك رابطة تجمع العرب بعضهم ببعض سوى لغتهم العربية ونزعتهم إلى التنازع بينهم والاختلاف. وقد كانت حياتهم تتسم بالفرقة والتناحر . وكما يعلمنا تاريخهم فان كل أقسامهم القبلية أو ممالكهم التى على تخوم شبه الجزيرة كانت تعيش فى نزاع دائم مع غيرهم .ولم يحدث في شمال ووسط الجزيرة أن استطاع قوم

منهم تكوين مملكة موحدة تضم سائر العرب على مختلف قبائلهم . وقد عاشوا مختلفين مفترقين .

كانت حياة العرب تتوق إلى أعمال المغامرة ، لذلك كثرت غزواتهم وغاراتهم على بعضهم بعضا . وكانوا يحبون مفاجأة الأخرين بغزوهم في عقر دارهم ، وسلب أموالهم ، وسبى نسائهم . ولم يلجأوا إلى الغدر الإ فىالقليل النادر .ولعل صفة الغدر هذه من الصفات التىلم تقرها مثلهم العليا قبل الإسلام ، بل هى من الخلال القليلة التى وضعت في دستورهم الاجتماعي. ومن الغريب أنه بالرغم من أن العربي يأنف أن يمارس الغدر ، كوسيلة أو حيلة يتعامل بها مع الآخرين الإ أن الأفلام السينمائية الغربية دأبت على إظهار العربي بالشخص الذي يلجأ الى الغدر ، مما يجعل الأوروبي أو الغربي لا يأمن جانبه . ولعل هذا النوع من التصوير للخلق العربي ناتج عن أسباب أخرى قد يكون مردها الصراع بين الأوروبيين المستعمرين ، وبين العرب المسلمين المدافعين عن بلادهم وثرواتهم وممتلكاتهم . وعلى كل حال فليس هذا أوان استقصاء الحقائق في هذا الشأن بل سنترك الأمر لمن يجد الوقت لذلك .

والعربي لفظ يطلق في كثير من الأحيان على البدوي وذلك في بعض البلاد العربية . وقد دأب مؤرخو العرب على استعمال كلمة " عربان " على البدو العرب وذلك خلال العصر المملوكي في مصر ، مما يعيد اللفظ إلى أصله الذي ظهر به أول مرة مع الآشوريين واليونانيين والروم . وما زالت بعض البلاد العربية تستعمل لفظ عربي لكل بدوي ، وتعني به ذلك الرجل ، ولكن ذلك لا يظهر ولا يستعمل في أرض الجزيرة العربية . ولعل السبب الرئيسي في هذا الاستعمال هو أن هناك من الأهالي من كانوا غير عرب

عندما نزح إليهم العرب ، ولكن حتى عندما استقر العرب في المدن والحضر فإنهم فرقوا بينهم وبين من استمر في بداوته منهم ، فأطلق عليهم هذا اللفظ الذي يقصد به البداوة .

وكثيرا ما اختلف علماء الأجناس في أصل العرب وفي موطنهم الأصلي ، ولكننا في هذه الأسطر نكتفي بوجودهم بيننا ونسعى إلي تحقيق تحركاتهم في تاريخهم قبيل الإسلام وبعده لنرى كيف كان مسير تلك القبائل من موطنها الأصلي بالجزيرة وتوجهها نحو أرض الكنانة ذات الخير الوفير ، ووصولها إلى أرض ممالك النوبة والبجة وما وراءهما من أراضي السودان الفسيحة . ولعل من بين الخلال الخلقية التي عرف بها العربي ، والتي لازمته وتعلق بها ، وكادت تصبح غريزة فيه هي حبه للحرية الفردية ، فهو لا يحب التقيد بقيود المجتمع ، بل يريد أن يكون حرا في حله وترحاله ، ينام بالقرب من ناقته أو جمله (٣) ، فإذا أراد أن يرحل من مكانه الذي هو فيه ركب ناقته عند طلوع الفجر ، فأصبح في مكان آخر غير الذي أمسى به . وما أسهل الناقة كوسيلة للمواصلات أو على الأصح للفراق ، فإنها لا تحتاج إلى استعداد للسفر ، أو إقلاع من مطار أو محطة ، أو لسائق يديرها ويحركها ، فهي خير مثال للنقل المستقل الذي لا يحتاج إلى أسطول جوي ، أو ملاحين بحريين أو جويين . فالإبل هي الوسيلة الرائعة المناسبة لروح الاستقلال والفردية عند العربي . وهي لا تحتاج إلى وقود ، لأن كل ما على ظهر البسيطة من عشب وكلأ وشجر وقود لها ترعى فيه وتملأ بطونها ، وتقضم من هذه الشجرة أثناء سيرها ، وتعض على تلك الفروع دون أن تتوقف ، وصاحبها يراها تفعل ذلك فلا ينهاها ولا يتذمر ، بل يتركها تقضم وتبلع

وتهضم ، وهو سعيد بما تفعل سعادته بتناوله حبات التمر التي ملأ بها جرابه ، وأخذ يلوكها كلما لاكت ناقته الأعشاب و الفروع .[٣]

وهناك اضطراب في آراء المؤرخين من حيث أصل العرب ، وموطنهم الأصلي ، وهجراتهم وأوقاتها . وقد ذهب بعض الناس إلى أن هؤلاء الناس من شعوب البحر الأبيض المتوسط التي هاجرت من تلك المناطق إلى شبه الجزيرة العربية . ومن الصعب أن يقبل المرء هجرة جماعات من البشر من مناطق يكثر فيها الغيث ، إلى مناطق جافة قل أن تجد أمطارا . ولكن لو حدثت مثل هذه الهجرة في الماضي فلا ريب في أنها كانت في وقت كان فيه الجو في شبه الجزيرة العربية مختلفا عما هو عليه الآن . كذلك فإننا لا نتوقع أن تكون مثل هذه الهجرة قد حدثت في عهد كان فيه الاستقرار يعم حوض البحر الأبيض المتوسط إذ لابد أن يكون الناس في ذلك الوقت في عصر الرعي أو ما هو شبيه به .

ومن الباحثين من يرى أن الرحلة والهجرة من العراق هي الأقرب إلى المعقول . ويذهب بعض الدارسين إلى أنه كانت الجزيرة العربية تسكنها جماعات من الزنوج أو السود الذين هاجروا إليها من جنوبي آسيا ، ثم انتقلت هذه ا لأ مم السوداء إلى إفريقيا عندما وصل إليها أجداد العرب الأوائل . غير أن ما يعنينا من هذا كله هو أن العرب سكنوا الجزيرة العربية منذ فترة طويلة في التاريخ ، وأنهم ما زالوا فيها رغم أن الكثيرين منهم

١وقد أوضح المثقب العبدى هذه الخلة فى قوله :-

اذا ما قمت ارحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضين أهذا دينه ابدا ودينى
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقى علي وما يقيني

هاجروا مع الفتوحات الإسلامية إلى كل من القارات القديمة مثل إفريقيا وأوروبا وبالطبع آسيا .

وقد ورد لفظ العرب عن الكلاسيكيين مثل هيرودقس المؤرخ اليوناني ، كما ورد في مؤلفات غيره من المؤرخين الرومانيين ، ولم يكن المعني بالعربي هو ذلك البدوي فقط الذي يعيش في أطراف البلاد الحضرية ، بل أصبح لفظا أو تعبيرا يطلق على كافة سكان جزيرة العرب سواء الذين كانوا يسكنون في اليمن أو أولئك الذين يجاورون الفرس مثل المناذرة أو الذين يسكنون الشام والموالين لدولة الروم البيزنطيين ونعني بهم الغساسنة . أما اليمن فقد أطلق عليها الروم لفظ العربية السعيدة وعرفت في المدنية الأوربية على مر العصور بهذا الاسم .

ولم يكن كل سكان الجزيرة العربية من البدو الذين ينفرون من حياة المدن والاستقرار والذين يخشون أن يؤدي مثل ذلك الاستقرار ، إلى أن يصبحوا غرضا لغيرهم ، فتنهال عليهم الإغارات والغزوات ، ويصبحون في حالة قلقة من العيش ، بل كانت هناك جماعات وجدت حالة من الاستقرار مثل أولئك الذين عاشوا في يثرب ومكة المكرمة وغيرهما من المدن أو كبريات القرى .

وكانت حياة البادية لا تساعد على نمو حياة فكرية راقية عن طريق التعليم والكتابة ، ولذلك فإن مثل هذه الوجوه الحضارية نشأت في المدن سواء التي كانت في الشام أو اليمن أو الحجاز . ففي الشام الكبير ظهرت المسيحية وتعاليمها ، وازدهرت في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية ، وانتشرت بين بعض أفراد الأمة العربية بحثا عن الحقيقة والدين . وكان قبل المسيحية قد ظهرت التعاليم الدينية التي بثها سيدنا إبراهيم عليه

السلام وغيره من أبنائه الرسل – تلك التعاليم التي وضعت أولى اللبنات للديانات السماوية . ومع إسلام نبي ا لله إبراهيم وغيره ، والمسيحية ، فقد كان أهل البادية يقتدون بالوثنية التي كانت تشتهر بها مكة آنذاك جنبا إلى جنب مع الكعبة المشرفة . وكانت الأصنام والأوثان تجد مكانها المرموق في مكة ، كما كانت كل قبيلة قد اختارت لها الصنم الذي تعبده والذي ترعاه وتعرف اسمه . أما اليمن فكان موضعا اشتدت فيه النزاعات الدينية ، وانتشرت فيه اليهودية التي كان هناك كثير من معتنقيها ، فلما ظهرت المسيحية معها جنبا إلى جنب ، لم تستطع اليهودية أن تقبل مثل ذلك التنافس ، فما كان من السلطة اليهودية الحاكمة إلا أن زجت بالمسيحيين في الأخدود ، وأوقدوا فيهم النار ، وأحرقوهم ، وقد ذكر ذلك الحادث في سورة البروج في القرآن الكريم .

وانتشرت المسيحية بشكل واسع في الشام حيث الغساسنة والعرب الذين يسكنون تلك الجهات ، كما أن المبشرين المسيحيين انشأوا مراكز لهم ولدينهم في الحيرة حيث كان المناذرة يحكمون ، كما توغل هذا الدين بين بعض الأفراد العرب الذين كانوا يفتشون عن الحقيقة في كل مكان .

أما الأغلبية الساحقة من العرب ومن قبائلهم فقد كانوا وثنيين . ومن العجيب أنه بالرغم من وثنيتهم وضعفها من حيث الناحية الفكرية ، وعدم تغلغلها في الفكر لعدم وجود ما تدعو إليه من مثل عليا ، إلا أنهم كانوا أشداء على الإسلام والمسلمين ، ووقفوا أمام رسالة النبي (ص) بكل قوة ، ولكن سرعان ما استيقظوا من ضلالهم ذاك عندما شاهدوا تلك الأصنام وهي تتحطم وتهوي في ساحة الكعبة المشرفة ، وانتهت بذلك رسالة الوثنية التي سيطرت على فكر قريش زعيمة الوثنية العربية ،وعلى رجال

البادية ، وتدثروا جميعا بعد ذلك بدثار الإسلام ، واستيقظوا على صوت آيات القرآن الكريم ، وغيروا من تقاليدهم القديمة التي لم يقبلها الدين الحنيف ، وتمشوا مع تعاليمه السمحة الأخلاقية .

ولم تكن قريش التي كانت ترعى الأصنام في مكة المكرمة مغلقة على نفسها ، بل كانت معشرا نشطا تجاريا وفكريا . وكانت الأسفار التي يقوم بها رجالها إلى كل من إمبراطورية الروم البيزنطية في الشام وفي مصر ، وما كان يقوم به بعضهم من رحلات تجارية إلى اليمن والحبشة أيضا ، وما كان لها من نفوذ على قبائل البادية – كل هذه النشاطات كانت تجعل من قريش شعبا مستنيرا في السياسة والاقتصاد ، ولهذا فقد كانت تخشى قبل كل شئ على نفوذها الفكري في الجزيرة العربية بالإضافة إلى الخشية على نفوذها الاقتصادي والديني .

أما اليمن فبعد أن كانت ذات حضارة رائدة تحت قيادة المعينيين والسبئيين الإ أنها في العصر السبئي ضعفت أمام قوة سيدنا سليمان عليه السلام ، كما أنه عندما ورث الحميريون حضارتها لم يلبث هؤلاء أن انهارت قوتهم تحت ضربات الأحباش وانزوت دولتهم ، وضعفت إلى حد بعيد .

وكانت الديانة الوثنية غير قادرة على توحيد العرب ، وضمهم في دولة واحدة إذ لم تكن هناك تعاليم سمحة تنادي بها تلك الوثنية ، بل كانت ديانة سلبية لا تثير النفس إلى عمل الخير . ولهذا فقد أخفق العرب في إيجاد أرضية مشتركة بينهم رغم أنهم كانوا يتكلمون بلغة واحدة ، ورغم أنهم كانوا من عنصر واحد وهو العنصر السامي . ولم ينجحوا في أن يجعلوا من أنفسهم شعبا موحدا الإ بعد الرسالة النبوية التي غمرت أرضهم بضوئها ، ونشرت شعاعها الوضاء إلى بقية أنحاء العالم الذي وجد فيها أهم عامل

لوحدة البشرية التي نادى بها الدين الإسلامي في القرآن الكريم حين قال سبحانه وتعالى :((وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)) لا ليحارب بعضكم بعضا ، ولكي تفنوا نفوسكم بالحرب والقتال .

لقد وهب الإسلام البشرية عناصر إنسانية هامة ،فهو قد علمهم وحدانية الله ، وأنه لا شريك له ، وأن محمدا رسوله الذي بعث لهدايتهم ، وأن عليهم أن يتحدوا ويتوحدوا ، وأن عليهم الأخذ بالأخلاق الفاضلة التي بينها لهم ، وبمثل هذه التعاليم والمثل العليا خلق الله سبحانه وتعالى معشر المسلمين بدءا بالعرب لينهضوا بالإنسانية ، وترتفع إلى أعلى عليين .

بعد انتشار النبوة في شبه جزيرة العرب ودخول تلك القبائل المتنافرة في ذلك الدين الحنيف ، بدأت الفتوحات الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه بدأ توحيد الدولة الإسلامية ، ثم فك العرب المسلمين من عقالهم للجهاد في سبيل الله ، ولأخذ الدين الحنيف إلى سائر الناس وهم في دورهم ومعاقلهم وأوطانهم .

وكان من بين الأقطار التي سارت إليها القبائل العربية المسلمة لهديها إلى سواء السبيل أرض الكنانة مصر ، تلك البلاد التي كانت رائدة في المدنية والحضارة الإنسانية . وتلك التي وإن كان فيها فرعون موسى ، إلا أنه كان فيها عزيز مصر ، كما كان فيها أخناتون أول الأمراء والملوك في التاريخ الإنساني الذي آمن بوحدانية الله ، ونبذ أفكار الرهبان الذين كانوا يستغلون الشعب فيجعلون من آلهتهم الصنمية آلهة يعبدها الناس . وكانت حضارة مصر فوق كل حضارة عرفها التاريخ ، فقد كانت من حيث الزراعة أرقى ما عرف الإنسان ، ومن ناحية العلم لا يشق لها غبار ، ومن الناحية الهندسية ما يجعل العالم حتى اليوم قزما أمام منشآتها من أهرام ومبان

أخرى ، ومن حيث التعليم فقد كانوا من أوائل من اخترع الكتابة ، وعرف الحساب والرياضيات ، وتفوق في الطب ، ووضع نظاما دقيقا لمراقبة فيضان النيل . وكانت مصر تطعم سائر العالم القديم بخبزها وقمحها ، وكانت أول من اخترع ورق البردي لحفظ الفكر والتراث الإنساني .وكانت لغتها القديمة التي كانت تتحدث بها وتكتبها إنما تكتب على ورق البردي الذي مازال محفوظا حتى الآن رغم مرور آلاف السنين عليه – تلك اللغة التي اعترف كثير من العلماء بأنها لغة سامية ، فإنها تخضع للاجرومية السامية ، ومن هنا توصل العلماء إلى أن الشعب المصري القديم ربما كان من أصل عربي .وكثيرا ما خطر لنا أنه لابد وأن تكون هناك علاقة بين قدماء المصريين والشعب العربي ، وأن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون بأن هناك صلة قوية بينهم وبين المصريين وملوكهم من الفراعنة ، وأن القرآن الكريم عندما يضرب الأمثال بفرعون ، ويقص علينا كثيرا من أخباره مع سيدنا موسى عليه السلام ، ومع يوسف الصديق ، فإنما مرجع ذلك إلى أن العرب كانوا على علم ببعض أحداث هذه الأخبار ، وأن الله سبحانه وتعالى يستخلص العبر لعباده المسلمين . ومن ناحية تاريخية فإن عرب الشام في أيام موسى عليه السلام ويوسف ويعقوب عليهما السلام إنما كانوا يعرفون الطريق إلى مصر ، ومن يدري فربما كانت اللغة التي يتحدثون بها واحدة أو متشابهة ، وأنها سامية قديمة في كلا البلدين ، بل وفي الجزيرة العربية أيضا .

ومنذ العهود الإسلامية الأولى تقاطر العرب من بطون وقبائل على مصر . وكانوا قلة ، وكانوا مجاهدين ، وكانوا ميموني الطالع ، وكانوا تحت قيادة عبقرية ، فجاهدوا ، وصبروا وانتصروا . كان قائدهم المظفر ذلك العربي النابغة العبقري سيدنا عمرو بن العاص الذي لم تصادفه معضلة إلا

وجد لها حلا . ولم تواجهه صعوبة الا وذلت أمام رأيه السديد . وكان العرب الذين يقاتلون تحت لوائه الإسلامي يعرفون قدرة قائدهم الحربية ، وحنكته القيادية ، وعبقريته العسكرية ، فكانوا يصلون إلي ارض المعركة ، وينظرون إلى جيوش الروم ، فينتصرون عليها كما لم ينتصر يوليوس قيصر على جنود أعدائه . فما أروع أداء القائد ، وما أحسن جهاد المسلمين .

وبعد فتح مصر واجه عمرو حلفا من القوات النوبية السودانية في صعيد مصر . وكان النوبة مسيحيين بل هم من أشد الناس تمسكا بالدين المسيحي . وكانت الكنائس منتشرة في بلادهم حتى عد ابن سليم الأسواني فيها أكثر من أربعمائة كنيسة في العهد الفاطمي بمصر . وكان النوبيون يريدون أن يساعدوا الروم بالهجوم على المسلمين من الجنوب بعد أن أخفق الروم في الدفاع عن أرض مصر أمام زحف عمرو بن العاص . وكان السودان أو مملكة النوبة على قول أصح تربطه بمصر روابط قوية . فهناك رابطة الدين المسيحي أمام الجهاد الإسلامي . وكانت هناك روابط التاريخ القديم ، والوثنية التي أعقبتها المسيحية . وكان هناك الكثير من أبناء البلاد النوبية الذين التحقوا منذ القدم بالجيوش المصرية . وكانت التجارة العريقة مزدهرة بين الجانبين . وكانت كلتا المدنيتين متماثلة من حيث العلوم والهندسة والمعارف والزراعة . وكان السودان امتدادا طبيعيا لأرض مصر ، كما كانت مصر امتدادا شماليا لأرض النوبة .

كانت مصر إلى حد كبير همزة وصل بين الجزيرة العربية والأراضي السودانية . ولو دخل السودانيون أرض مصر غازين فاتحين لعبروا أرض سيناء ودخلوا شمال الجزيرة العربية أو انحدروا إلى جنوبها حيث الصحاري والجدب والفيافي . ولكن شاء القدر أن يدخل العرب مصر ، واستقروا

فيها ، فلما ضايقهم المماليك وغيرهم ، لم يرجعوا القهقرى إلى موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية ، بل توغلوا صاعدين في الأراضي السودانية . بل إنهم دخلوا هناك قبل أن يحدث اضطهاد المماليك لهم ، فكيف فعلوا ذلك ، ولم اتجهوا إلى هناك ؟ بل إننا نريد أولا أن نعرف ذلك البلد المجهول الذي تدفقت إليه أكثر من أربعين قبيلة عربية مسلمة .

obeikandl.com